الأستاذ الدكتور يحيى شامي

تطور الصورة النجومية في الشعر العباسي

بنات نعش الكبرى، والصغرى، سهيل، الزُّهرة، أو "نجمة الصباح" إن شئت، وسواها من النجوم والكواكب، منفردة ومجتمعة، ما كان أجملها في النظر، وأشدّ تأثيرها في النفس وهي تلمع بعيداً في السماء، موحية بالجلال، حافزة إلى التصور والخيال: فبنات نعش[1]، على سبيل المثال، وقبل الاهتداء إليها في قبة السماء الشمالية، لطالما حفز مجرد التلفظ باسمها، إلى جعل المرء يتصورها نجمات متلفعات برداء من نور، متهاديات وراء نعشين اثنين، أحدهما أكبر من الآخر، وقد جُلّل النعشان بالسواد، يطوف بهما "السادة المشيعون" من النجوم، ولسان "حالهم" يقول لبني البشر من علٍ:

"أيها الناس، كما في الأرض، كذلك في السماء..على أنّ حزننا، نحن، لدائم، ومصابنا لماثل، وما نحن بخالعي ثوب الحداد إلى يوم تبعثون[2]...!"

أجل، ما أسهل على المرء أن يتصور مثل هذا في ذهنه، لأن الأمر من السهولة بمكان.. خذ من الوهم خطوطاً، ثم صلْ تلك الخطوط بهاتيك النجوم، ولا تهمل عمل الخيال في إضافة ما يناسب من الظلال والألوان... وهل صور البروج، وقد جعلوا لكل منها اسماً، وأعطوه رسماً وشكلاً، إلّا ثمرة هذا الضرب من التخيّل، افتنّ فيه القدامى حينما لاحظوا انتقال الشمس، وحلولها في كل واحد منها شهرا، وهي تزاور عن النجوم ذات اليمين، وذات الشمال!؟

---

[1] النعش: سرير الميت. وبنات نعش الكبرى سبعة نجوم تشاهد جهة القطب، وبالقرب منها سبعة نجوم تدعى وبنات نعش الصغرى، أحدها يدعى النجم أو النجمة القطبية.

[2] تقول الأسطورة إن "نعشاً" قتل على يدي "الجدي" النجم المعروف، فبنات نعش تدور به، تريده.أنظر: مجمع الأمثال، للميداني ج2. ص407. مكتبة الحياة. بيروت 1961

النجوم البارزة من برج العقرب، ما أيسر أن تأخذ القلم لترسم به خطوطاً مستقيمة، حيناً، ومتعرّجة، حيناً آخر، واصلاً ما بينها، ليتبدّى لناظريك العقرب تماما، بشولته وقلبه وزبانه إن لم نقلْ بلحمه... وما قولك ببرج الأسد إذا ما وصلت بين نجومه بالخطوط ذاتها، وعلى النسق نفسه، أفلا يستوي في المخيّلة أسداً سويّاً مثل بقيّة الآساد، بزبرته، وجبهته ونثرته، وما يعوزه بعدُ إلا التزآر!؟ وقل الأمر عينه فيما يخص سائر بروج السماء، وما تشتمل عليه هذه، من نجوم وكواكب... ومن ذا الذي يغفل عن جمال الثريا، فلا يتصوّرها ضفيرة نفيسة من الجمال، أو قرطاً بديعاً لو ترصّع به آذان الحسان!؟

مثل هذه التصورات اللذيذة، والتخيلات الجميلة راودت المجتمعات البشرية في طفولتها منذ القديم، فكان ثمة أساطير وصور للأبراج والكوكبات، مثلما راودت كل انسان في طفولته.

ولو أننا انتقلنا من عالم الطفولة والأسطورة إلى عالم النضج العقلي، والإبداع الأدبي والشعري، لشعرنا أيضاً باللذة نفسها، تولدها فينا، إن لم نقل تضاعفها، لغة الشعر التصويرية والمجازية، ومقدرتها التعبيرية على إيجاد "مجموعة من التأثيرات الانفعالية التي تضفي على المضمون الجمالي لأي عمل فني، دلالة وجدانية خاصة تختلف باختلاف الذكريات والارتباطات المتولدة في ذهن المتذوق[3]"، فكيف بك إذا كان هذا العمل مرتبطاً بما في السماء من نجوم، وما تثيره هذه، شكلاً ولوناً وتألقاً، في النفس من صور وإيحاء وتأثير... حتى العميان ما كان انعدام البصر ليحول دون تطلعهم إلى آفاق السماء ليروا تلك اللآلئ الباهرة، والنجوم الحائرة، يهتدون إليها بنور العقل، ويبصرونها بعين الخيال، ليفيضوا عليها من مشاعر، ويخلعوا عليها من مجال، فإذا الصورة خلق جديد أين منه ما تجلوه أحياناً أعين المبصرين! ألم يقل أبو العلاء قديماً:

---

[3] هذا الرأي للفيلسوف الاسباني G. Santayana 1966. مكتبة مصر. ص86. أنظر: فلسفة الفن في الفكر المعاصر، لزكريا إبراهيم (1863-1952)

ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان
وكأن الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتنقان [4]

صورة حية تنمّ عن فارط إحساس بالجمال، وعن انفعال به، قدمها لنا الشاعر فحرك فينا فيضاً من الإحساس والانفعال. أو ليس الفنان العظيم كما يقول برغسون Bergson هو الذي يصدر في عمله عن انفعال جديد أصيل، بحيث يولد في أنفسنا أحاسيس جديدة أو عواطف لم يكن لنا بها عهد، أو انفعالات لم تكن لنا في الحسبان[5].

مما لا شك فيه أن ثمة أشياء جميلة بطبيعتها، وفي ذاتها، إلا أن للخيال دوراً في إكسابها معظم هذا الجمال. ونقصد بالخيال، هنا، خيال الملهمين من الشعراء، وغير الشعراء من الفنانين الذين عرضوا كيف يخلعون على هذه الأشياء سر جمالها، وكيف يستلبونها لأنفسهم، ويحيلون إلى ذواتهم، ليضفوا عليها قيمتها، ويبرزوا جانب الجمال فيها. ولولا ذلك، الطبيعة لنا خلواً من كل جمال، مفتقرة تماما إلى كل تعبير، إن لم نقلْ عديمة الاكتراث، وإن كنا لا ننكر أن العمل الفني، وكما يرى Diderot إنما هو العمل الذي ينبع من الواقع، ويستمدّ منه عناصر وجوده العامة[6].

ولا يخفى أن جمال المنظر، وأنت تبصره حقيقة، أحيانا، هو دونه بكثير وأنت تنظر إليه بعين الخيال من خلال الصورة الشعرية التي تبدعها مخيلة الشاعر إبداعا، وتخلقها خلقا جديدا[7]. ذاك أن الشاعر أو الفنان، لا يقف عند حدود الظاهرة الجمالية، كما تبدو للعيان، وحسب، بل قل إنه لا يقتصر على رسم الواقع المباشر لظواهر الأشياء، ولكنه يعبر عما هو جوهري فيها، فهو يجمل الطبيعة أو المشهد، ويتغلغل إلى أعماقه، ويفيض عليه من رهافة الحس، وهذا ما يجعله أشد فتنة، وأكثره إثارة... وإذا سهيل على لسان أبي العلاء، يكاد يخرج عن كونه جرما يشع بالنور، ليكون قلبا خافقا معنّى، تغشى وجهه صفرة وجوه العاشقين:

---

[4] شرح ديوان سقط الزند من القصيدة رقم 9 ص 45. شرح وتعليق نزار رضا. دار مكتبة الحياة. بيروت 1965

[5] فلسفة الفن في الفكر المعاصر ص27

[6] النقد الأدبي الحديث، لمحمد غنيمي هلال. ص 269. دار العودة. بيروت. 1973

[7] "إن غروب الشمس الذي يستشير إعجابنا في فن التصوير ليس هو غروب الشمس الجميل، بل هو غروب الشمس الذي صوره فنان عظيم" انظر: فلسفة الفن في الفكر المعاصر. ص 159 :Malrauxيقول مالرو

وسهيل كوجنة الحبّ في اللون وقلب المحبّ في الخفقان[8]. سهيل هذا، وسواه من النجوم أو الكواكب التي مهما تكبر فإن حجم واحدها باستثناء الشمس والقمر، فلن يزيد على قبضة الكف، أو الدينار، بالنسبة إلى العين المجردة، سهيل هذا، أوحى، على صغره، في القديم، إلى الشعراء ما أوحى، فكيف بهؤلاء لو استشرفوا مواقع النجوم، كما هي فعلاً، ورنوا من خلال أبسط منظار فلكي، إلى المشتري، أكبر الكواكب السيارة، أو الى زحل، أشرف الكواكب داراً؟.

وما عساهم كانوا يقولون لو أنهم امتلكوا ناصية المرقب الإلكتروني الحديث فشاهدوا، أو شهدوا أرتال السّدم والمجرات ، بنجومها الملايين، وهي تزحف في مجاهلها السحيقة، وما يقبضهنّ إلا الله؟ أفلا يتحوّل المشهد، كواقع طبيعي محض، وبنظر الشاعر الملهم، إلى مشهد من الخلق الفني، حافل بالرؤى، غني بالإيحاء والإبداع؟ أولم يكن ذلك قديماً منذ أن انبرت "سافو" Sappho ، الشاعرة اليونانية القديمة، وعلى استحياء، لتتغنى بجمال "نجمة المساء" المسكونة بالأرواح؟

ولرب سائل يسأل فيقول أين هي النجوم في الشعر العربي الذي ما عرفناه إلا معرضاً للمدائح والأهاجي والمراثي والمفاخر؟ من المعروف أن الشعر العربي ينحصر، أو يكاد، في الشعر الغنائي، حيث عواطف الشاعر، و مشاعره من حب و مدح و فخر ورثاء وهجاء. معانٍ وأغراض تكاد تكون هي ذاتها لدى معظم الشعراء، ولعهود طويلة. لكن ثمة حقيقة يجب أن لا تغرب عن بال الدارس، وهي تداخل بعض الأغراض الشعرية ببعضها الآخر، ولعل فن الوصف بالذات، فضلاً عن استقلاله أحياناً، يأتي في مقدمة هاتيك الأغراض الشعرية المتداخل بعضها في بعض.

خذ الغزل أو المدح أو الطلل، على سبيل المثال، تجد مظاهر الوصف ماثلة لك محاسن حبيبة، وصفات ممدوح، وتقلب رمال .. وأنت لو كلفت نفسك البحث عن شعر وصفي متخصص بمظاهر الطبيعة فلن تجده قائماً بنفسه، منسلخا عن غيره، إلا بعد عناء، فكيف لو رحت تبحث عن شعر متخصص بالنجوم.

[8] سقط الزند ص 45

كان هذا سمة العهود الأدبية الأولى المغرقة في القدم، لكن هذه السمة سرعان ما تبدلت ونمت على مر الزمان إذ أننا نلاحظ، في العصر العباسي خاصة، أن ثمة شعراء راحوا يعطون للوصف قيمته الفنية، ونزعته الاستقلالية، ملتفتين إلى الطبيعة، متقصين جوانبها الفتانة، ولا سيما تلك المتعلقة بالسماء والنجوم. وإننا لنجد ذلك واضحاً كل الوضوح في شعر العديد من شعراء عصر بني عباس، كالصنوبري، وابن المعتز، وأبي هلال العسكري، على سبيل المثال. ولا يعني هذا أبداً أن شعراء البادية والحواضر العربية في القديم قد انصرفوا عن مثل هذا اللون من الشعر، كلّا، وأنّى ذلك؟ ولو كانوا من أبناء تلك الأمم النائية عن كبد الصحراء ممّن ينعقد الضباب فوقهم، أو السحاب والغمام، لغفرنا لهم جهلهم بخبر ما في السماء؛ لكنهم كانوا من الصحراء في الصميم، ومن الصفاء ورقة الطبع وسرعة التأثر والانفعال بمكان... وأنت لو اطّلعت على علوم العرب ومعارفهم في الجاهلية لوجدت في مقدمتها علمهم بالنجوم والأنواء... وأنت لو رجعت الى أدبهم: شعره وأمثاله وأسجاعه، لما أعوزك الدليل والشاهد على صحة ما نقول... كل هذا صحيح، ولكن الأصح أن هذا النوع من الشعر ما كان ليقوم بنفسه إلا نادراً، ولم يكن تعبيراً مرتبطاً بتجربة الشاعر الذاتية مباشرة بقدر ما كان مرتبطاً بتجربته العامة من خلال بقية الأغراض الشعرية... وما حدث مثل هذا التطور قط إلا في العصر العباسي.

[1]فلسفة الفن في الفكر المعاصر ص27

[1]النقد الأدبي الحديث، لمحمد غنيمي هلال. ص 269. دار العودة. بيروت. 1973

[1]يقول مالرو :Malraux "إن غروب الشمس الذي يستشير إعجابنا في فن التصوير ليس هو غروب الشمس الجميل، بل هو غروب الشمس الذي صوره فنان عظيم" انظر: فلسفة الفن في الفكر المعاصر. ص 159

[1]سقط الزند ص 45